الحملة الفرنسية وظهور محمد علي

بقلم

دكتور

محمد فؤاد شكري

درجتا الشرف والعالمية في الآداب

ودكتوراه الفلسفة في التاريخ الحديث من جامعة لفربول

ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين . و بعد فإن الغرض من كتابة تاريخ « الحملة الفرنسية وظهور محمد على » ، هو دراسة بعض النواحى التى ظل الكثيرون ممن تناولوا هذا الموضوع يغفلون دراستها ، إمّا لسبب توجيه عنايتهم إلى بحث السياسة الأوروبية قبل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر ، وفى أثناء وجود الفرنسيين ، ثم عقب خروجهم من هذه البلاد على اعتبار أن الحملة أثر من آثار هذه السياسة ، كما أن استلام محمد على لأزمّة الحكم فى مصر إحدى نتائجها ؛ و إمّا لأنهم أرادوا الاحاطة بكل ما وقع من الحوادث فى هذه الفترة من تاريخ البلاد .

ومع أن كافة هذه المجهودات كانت ولا شك موفقة ، ولا غنى لباحث عن الاستفادة من ثمرتها ، ولأصحابها كل ثناء وتقدير اعترافاً بقيمة الأثر العلمى الذى أحدثوه ، فإن موضوع « الحملة الفرنسية وظهور محمد على » متشعب النواحى حتى أن الباحث ليجد فى كل وقت مسائل جديدة لا مندوحة من معالجتها . ولعل أظهر هذه أن تاريخ الحملة الفرنسية على مصر إنما هو جزء من تاريخ الاستعمار الفرنسى الحديث برمته ، كما أن نجاح محمد على فى الوصول إلى الحكم والاستئثار بصولته كان يتوقف فى الحقيقة على عبقريته الفذة وما حبته من مهارة فى استغلال الظروف التى نجمت من اصطدام المصالح السياسية الأجنبية فى مصر .

وعلى ذلك فإن الموضوع الذى يعالجه هذا الكتاب يشمل ناحية ظلت غامضة أو مجهولة مدة طويلة وتلخص فى أن مجىء الحملة إلى مصر إنما كان يرتبط وثيقاً بتاريخ الاستعمار الفرنسى الحديث عقب انهيار الامبراطورية الفرنسية الأولى .

ولذلك أضحى الغرض من دراسة تاريخ الحملة الوقوف على حقيقة جهود الفرنسيين « الاستعمارية » فى أثناء وجودهم فى مصر ، ثم معرفة الأسباب التى أدت إلى إخفاق المشروع الذى عقدوا عليه آمالهم فى إحياء أمبراطوريتهم الاستعمارية على أسس جديدة ، وفى ميادين غير تلك التى فشلت فيها جهودهم القديمة .

ولما كانت هذه الدراسة تتناول جملة موضوعات قد يجد القارئ رغبة فى معرفة المصادر التى استمدت منها وقائعها ، فقد ذيل كل فصل بمجموعة وافية من المراجع

بيد أنه كان من المتعذر بتاتاً إتمام هذا الكتاب من غير الفرصة التى أتيحت للمؤلف حتى يدرس فى قسم المحفوظات التاريخية بسراى عابدين العامرة ، ثم فى مكتبة السراى الذاخرة بمصادر التاريخ المصرى الحديث . ولم تكن هذه الدراسة من عهد قريب . فقد بدأت من جملة سنوات مضت عند ما تفضل المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول طيب الله ثراه ، فأذن للمؤلف عند إعداده كتابه الأول باللغة الإنجليزية عن « الخديو إسماعيل و إلغاء الرق فى السودان » بالبحث والاطلاع فى قسم المحفوظات التاريخية وفى مكتبة السراى . ثم شاءت إرادة مليك البلاد جلالة الفاروق المعظم أن يتم جميل والده العظيم فصدر الكتاب المذكور تحت رعايته وفى ظل عطفه و بفضل سخائه ؛ ثم حباه المولى عز وجل باستمرار عطف المليك عليه فاستطاع المضى فى بحثه حتى تمكن من إنجاز الكتاب الذى يقدمه الآن إلى حضرات القراء الكرام ، ثمرة مجهود طويل ، راجياً أن يكون قد أدى بذلك شيئاً مما فرضه على نفسه نحو الوطن الذى وصل إلى المركز الرفيع الذى يشغله الآن بين الأمم المتمدينة الحديثة فى ظل الأسرة العلوية المجيدة التى توالت زمام هذا الوطن فأنارت له سبل التقدم والرقى المضطرد .

موضوعات الكتاب

الفصل الأول

مصر قبيل مجيء الحملة الفرنسية
السيطرة المملوكية

الفتح العثمانى — ترتيب الديار المصرية — فوضى الحكومة — البكوات المماليك — على بك الكبير — تاريخ على بك — شياخته — استقلال على بك — الشيخ ظاهر — على بك وفتح بلاد العرب — الحملة على الشام — المحالفة مع الروسيا — سقوط دمشق — خيانة أبى الذهب — نهاية على بك — نهاية أبى الذهب — الفوضى المملوكية — أحمد باشا الجزار — الحملة العثمانية وفشلها — تأخر البلاد الاقتصادى — الطريق البرى — فرنسا والطريق البرى — انجلترة والطريق البرى — ثورة على بك وأثرها فى إحياء الطريق البرى — المعاهدة الانجليزية المصرية (١٧٧٥) — معارضة تركيا — المعاهدة الفرنسية المصرية (١٧٨٥) — استئناف النشاط الانجليزى — شكايات الفرنسيين — الامتيازات — بعثة دبيوا ثانفيل — شكايات مجالون — الحملة الفرنسية على مصر .
مصادر البحث .

الفصل الثانى

الحملة الفرنسية : أصولها وأسبابها

تمهيد :

(١) المسألة الاستعمارية : سياسة شوازيل — نظام الاستعمار الفرنسى القديم — 'الحق الاحتكارى' 'الرقيق الأسود' — فلاسفة الثورة والاستعمار — انحلال النظام الاستعمارى القديم — أنصار الاستعمار الجديد — 'الشرق' الميدان الجديد — فرنسا والامبراطورية العثمانية — آراء سانت پريست — تقرير (مور) — سياسة فرجن — الرأى الفرنسى ومصر — رحلة البارون دى توت — رسائل سافارى — رحلة فولنى — آراء فولنى عن الحروب الروسية والتركية — سنوات 'الثورة' — تجدد الرغبة فى الاستعمار — تاليران وآراؤه الاستعمارية .

(٢) المسألة السياسية : انحلال المحالفة الدولية الأولى — مقدمات صلح لوبن — بين لوبن وكمبو فرميو — مراسلات نابليون — تاليران — مسألة مالطة — معاهدة كمبو فرميو — الحملة على مصر — (أ) تقرير بوسيلج (٨ فبراير ١٧٩٨) — (ب) تقرير مجالون (٩ فبراير ١٧٩٨) — (جـ) تقرير تاليران (١٣ فبراير ١٧٩٨) — (د) تقرير بونابرت عن رحلته التفتيشية (٢٣ فبراير ١٧٩٨) — أوامر حكومة الادارة .
مصادر البحث .

الفصل الثالث

بونابرت فى مصر

خروج الحملة — الاستيلاء على مالطة — الوصول إلى الشواطىء المصرية — الزحف على القاهرة — موقعة امبابه أو الاهرام — التنظيمات الأولى — موقعة أبى قير البحرية — معلومات "بروبس" عن الشواطىء المصرية — بونابرت ومسألة مرسى الأسطول — بونابرت وبقاء الأسطول فى المياه المصرية — الأسطول فى أبى قير — الانجليز والحملة — المعركة — أسباب الهزيمة — مسئولية بونابرت — نتائج المعركة .

(١) بونابرت والسياسة الاسلامية الوطنية — الاسلام والسياسة — الحكومة الداخلية — ثورة القاهرة — : (أ) أسبابها — المسألة المالية — ثورة القاهرة : (ب) وقائعها — نتائجها

(٢) الحرب السورية : جهود بونابرت الدبلوماسية — الدبلوماسية الفرنسية فى القسطنطينية — فشل الدبلوماسية الفرنسية — الدبلوماسية الانجليزية الروسية — الحملة السورية — معركة أبى قير البرية — رحيل بونابرت إلى فرنسا .

مصادر البحث .

الفصل الرابع

كليـــبر ومسألة الجلاء

حكومة كليبر — اختيار كليبر للقيادة — تعليمات بونابرت إلى كليبر — كليبر يتسلم القيادة — تقرير كليبر إلى حكومة الادارة (٢٦ سبتمبر ١٧٩٩) — قيمة التقرير وأثره — مفاوضات الصلح (المرحلة الأولى) — تدخل سدنى سميث فى المفاوضة — مفاوضات الصلح (المرحلة الثانية) — تعليمات كليبر الأولى (٧ ديسمبر ١٧٩٩) — تعليمات كليبر الثانية (٣ و ٧ يناير ١٨٠٠) — سقوط قلعة العريش — اتفاق العريش (٢٤ يناير ١٨٠٠) — معارضة اللورد إلجين — معارضة الحكومة الانجليزية — معارضة نلسن — نقض اتفاق العريش — سياسة سدنى سميث — معركة هليوبوليس (٢٠ مارس ١٨٠٠) — ثورة القاهرة الثانية — كليبر بعد هليوبوليس — معاهدة كليبر — مراد (٥ ابريل ١٨٠٠) — الشئون المالية والاصلاحات — كليبر يقرر المقاومة — مصرع كليبر .

مصادر البحث .

الفصل الأول

مصر قبيل مجيء الحملة الفرنسية

السيطرة المملوكية

الفتح العثمانى :

يسبق مجيء الحملة الفرنسية العهد العثمانى — المملوكى وهو يبدأ فى الثلث الأول من القرن السادس عشر عند ما فتح العثمانيون هذه البلاد على يد سلطانهم سليم ، ومنذ أن قرئت الخطبة باسمه فى مساجد القاهرة فى ٢٤ يناير سنة ١٥١٧ خضعت الديار المصرية لحكم آل عثمان ، فظلت فى حوزتهم مدة الخمسة قرون التالية تقريباً ، وفى سبتمبر من العام نفسه غادر سليم مصر وترك فى نيابة القاهرة خير بك وهو من مماليك السلطان الغورى ونائبه فى حلب ، وكان قد انضم إلى العثمانيين ، فاستمر خير بك يشغل هذا المنصب حتى وفاته فى نوفمبر ١٥٢٢ ، ثم تعين باشاوات آخرون كانوا يحضرون من القسطنطينية .

- ترتيب الديار المصرية :

وفى أثناء إقامته عنى السلطان سليم بوضع القواعد ورسم المبادىء العامة التى قام عليها ترتيب الديار المصرية ، وكانت هذه القواعد والمبادىء العامة تستند على أصول قديمة ترجع إلى عهد يوسف عليه السلام ، ذلك أنها متأثرة فى الحقيقة بوقائع الحياة المصرية وظروفها فى العصور المختلفة . وأما الفضل فى تدعيم هذا الترتيب فيرجع إلى السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦) ، إذ حدد قانونه حقوق وواجبات الهيئات المتنوعة التى اضطلعت بشئون الحكم والإدارة .

وكانت الحكومة فى العهد العثمانى — المملوكى تتألف من الباشا ، وهو الذى يحضر من القسطنطينية لينوب عن السلطان فى الحكم ، وهو أيضاً غير الوالى ، « زعيم مصر .... الذى يتبصر فى القاهرة وخدمته إزالة الخواطى وهم النساء الفاحشات ووقوع أولاد الزنا وعليه جرف الخليج الناصرى » فى كل سنة .

وقد رتب السلطان سليم للباشا « جنوداً وكتخدا [وهو الوكيل عن الباشا] ومهرداراً [أمين خاتمه] وخزندار [أمين صندوقه] ، وترجمانا ذا فهم وفصاحة ، ورئيس ديوان وأغاوات [وهم الرجال من جند وموسيقيين ورسل فى معية الباشا] وجعل سكنه بالسرايا التى هى داخل قلعة مصر [ورتب له أيضاً] ديوان أفندى ، [وصحتها ديوان أفنديسى وهو سكرتير الديوان أو رئيس كتابه] [١] .

و إلى جانب الباشا أقام السلطان سليم ديوانا ، استعيض عنه بديوانين فى عهد السلطان سليمان القانونى : الديوان الكبير ، والديوان الصغير ، وكان الأول يتألف من رؤساء الأوجاقات وهى الفرق العسكرية العثمانية ، وضباطها الأغوات ، وأمير الحج ورؤساء المذاهب الأربعة والقاضى ، « نائب عن السلطان فى الأحكام الشرعية ، يحضر فى كل سنة من اسلامبول إلى مصر وخدمته أن يحكم بين الناس بالوجه الشرعى » ، وكان للقاضى التركى نواب فى القاهرة وفى الأقاليم ، ثم كبار أصحاب الوظائف والعلماء ، وأما الديوان الصغير فكان يتألف من كتخدا الباشا والدفتردار « وعليه الحضور فى كل ديوان لتحصيل الأموال الميرية بموجب دفتر الروزنامجى » ، والروزنامجى « كبير الأفندية والحاكم عليهم ، وخدمته تحصيل الأموال الأميرية وصرفها فى مرتباتها المرتبة بموجب دفتر السلطان سليم » ، وكذلك كان يحضر هذا الديوان الصغير مندوبون من الأوجاقات .

وكان الديوان الكبير يفصل فى الموضوعات الهامة ، ولا يجتمع إلا بأمر الباشا ومع ذلك فقد كانت له سلطة نقض أوامر الباشا نفسه ، وأما الديوان الصغير فكان ينعقد باستمرار للنظر فى شئون البلاد العامة ، وعلى الباشا القيام بتنفيذ قراراته .

(١) شفيق غربال بك . مصر عند مفرق الطرق ص١١ . وهامش ٢ من الصفحة ذاتها .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الباشا كان مسلوب السلطة فعلاً فى كل من الديوانين ، كما أن أصحاب الأثر الفعال فى الحكم والادارة ، والعنصر البارز فى حكومة مصر فى ذلك العهد ، كانت الأوجاقات ، وهذه كانت ستة ، بلغ عدد رجالها عند ما ترك سليم البلاد الأثنى عشر أو الأربعة عشر ألفا ، ثم أضاف إليها السلطان سليمان القانونى أوجاقا سابعاً من المماليك الذين طلبوا خدمة السلطان ، فكان رجال الأوجاقات « هم أصحاب الكلام وعليهم الاعتماد ، وهم المديرون بالقاهرة » ، ومن خدماتهم عدا حضور الديوان ، حفظ القلاع فى الحدود المصرية وتحصيل الأموال الأميرية ، والإشراف التام فى القاهرة على الباشا ورجاله سواء بواسطة كبراء الأوجاقات المقيمين فى القاهرة ، أو بواسطة من يقيم منهم فى الأقاليم وعلى الخصوص ، الجوربجية ؛ وكان أوجاق (الانكشارية) أهم هذه الأوجاقات السبعة [1] (فالانكشارية هم أوجاق السلطان) ولأغا الانكشارية الرياسة العليا على ضبط القاهرة ، ومنهم كبار أصحاب الوظائف كالكتخدا ، والجوربجية [ويطلق فى الاستعمال العثمانى على ضباط الانكشارية وعلى « مختارى القرى المتقدمين فيها ، أو بعبارة أخرى على أعيان الجهات »] ؛ وخلافهم .

وكان قوام الأداة الحكومية فى الأقاليم « الصناجق » ، [مفردها صنجق ، من التركية سَنجاق ، وهى العلم والقسم من ولاية كبيرة ، والحاكم على قسم من الولاية] ؛ وهم أصحاب الحكم وعددهم متغير ، يحتفظ السلطان بتعيين صناجق الثغور الهامة ، وهم « قبودان اسكندرية ، وقبودان دمياط ، وقبودان السويس » ثم كتخداء الوزير أو الباشا ويحضرون من القسطنطينية ، وأما بقية الصناجق فيعينون فى مصر ، ومنهم صنجق الخزنة وأمير الحج ، وحكام الولايات أو الأقاليم ، والخفر بالقاهرة ، ويلاحظ مما تقدم أن الصنجق لم يكن دائماً من حكام الأقاليم كما كان تعيين الصناجق ووكلائهم ويعرفون باسم (الكشاف) يحدث

(١) وهى : متفرقة ، وجاوشان ، وجملبان ، وتفكجيان ، وجراكسة ، ومستحفظان ، وعزبان . راجع شفيق غربال بك ص١٧ وما بعدها .

من بين البكوات المماليك المتنافسين على هذه الصنجقات ؛ ونتيجة ذلك أن أصبحت الحكومة الأقليمية فى الحقيقة فى أيدى البكوات المماليك .

فوضى الحكومة :

وعلى ذلك فقد شاهد العهد العثمانى — المملوكى فى مصر وجود سلطات ثلاث : الباشا ، والأوجاقات ، والمماليك ؛ ولما كانت حكومة الآستانة تكثر من تولية الباشاوات وعزلهم ، وكان هؤلاء فى خلاف مستمر مع رؤساء وضباط الأوجاقات ، وهذا بينما تعوّد الجند العثمانى ورجالهم الحياة الهادئة فى مصر ، فقد انفسح المجال لانفراد المماليك البكوات بالسلطة الفعلية فى البلاد تدريجياً ، وبخاصة لأن هؤلاء كانوا أقرب فى الحقيقة إلى المصريين فى حياتهم وأعرف بشئونهم من السلطات الأخرى . ومن أواخر القرن السابع عشر استتب للبكوات المماليك الأمر من غير منازع ، بسبب انشغال الدولة العثمانية بحروبها فى أوربا وكذلك استفاد البكوات المماليك من حروب تركيا فى القرن التالى لدرجة أن طغى نفوذهم على كل سلطة للباشا ، وصارت لزعيمهم الذى عرف باسم « شيخ البلد » الكلمة العليا ، يعزل الباشا ويقيم على حبسه فى القلعة ؛ ثم طمع البكوات المماليك فى الانفراد بكل سلطة وطرد العثمانيين من البلاد وقطع صلاتهم بتركيا .

البكوات المماليك :

على أن العهد الذى حاول فى خلاله هؤلاء البكوات المماليك الاستئثار بالسلطة كان فى الحقيقة عهد فوضى واضطراب ، استمر طيلة القرن الثامن عشر . ولعل أهم ما يلاحظ فيه ، ذلك النضال المستمر بين البكوات أنفسهم وجماعاتهم فى سبيل التمتع بالحكم مع ما يجره ويسببه هذا النضال من إغفال تام « للباشا » الذى كان يقابل عند تنصيبه وحضوره إلى مصر بكل حفاوة واحترام ظاهرين فى مبدأ الأمر ، حتى إذا استقر به المقام قليلاً بدت له

الحقيقة الواضحة ، وهى أنه مسلوب السلطة والنفوذ الفعلى ؛ ثم إنزال صنوف الإرهاق بالأهالى الذين قد تربطهم الظروف بساحة هؤلاء المتخاصمين ، بينما تظل الأكثرية ، ما دامت بعيدة عن مناطق النزاع ، لا يحيق بها سوى السوء المترتب على هذه الفوضى عموماً . والواقع أنه ما كان يشترك فى هذه المنازعات المملوكية سوى البكوات وأتباعهم وأهل بيوتهم . وكان مثار النزاع هو التنافس على « مشيخة البلد » .

وأما تتبع هذا النزاع فهو قصة طويلة[١] ، تبدأ بظهور المناقشة بين بيتين من بيوت المماليك : القاسمية وكان منهم شيخ البلد ، وذو الفقارية وكانوا يطمحون إلى المشيخة ، وكثيراً ما لجأ المتخاصمون من أهل هذين البيتين إلى فض منازعاتهم خارج القاهرة فى المنبسط القريب من (قبة العرب) ، حتى إذا استلم مشيخة البلد اسماعيل بك — وهو من القاسمية — استطاع أن يجمع مؤقتاً كلمة المماليك فى هدنة على أساس معارضة « الباشا » . وبفضل ذلك تمكن اسماعيل بك أن يتمتع بمنصب المشيخة مدة الستة عشر عاماً ، حضر إلى مصر فى أثنائها ، ثم غادرها إلى الآستانة ، عدد من الباشاوات بلغوا خمسة عشر ؛ ولو أن هذا بطبيعة الحال لم يكن معناه استتباب الهدوء فى القاهرة طوال هذه المدة . فقد ظلت الاشتباكات بين المماليك وبكواتهم كما كانت ، حتى قتل اسماعيل بك نفسه فى عام ١٧٢٣ . وقد أثار مقتله النضال الشديد بين القاسمية والفقارية حتى استطاع عثمان كاشف ، وكان يتبع الفقارية ، أن يصل إلى مشيخة البلد (١٧٤٠) . ومع أنه كان إدارياً ماهراً ، فقد واجهته صعوبات سببها انتشار الوباء ، والمجاعة التى تلت ذلك ، ثم ما كان يخشاه من ازدياد نفوذ ابراهيم كتخدا الانكشارية واسماعيل رضوان كتخدا العزب . وقد استطاع كلاهما الوصول إلى مرتبة البكوية ؛ وعند ما حاول عثمان كاشف التخلص منهما سبقاه إلى العمل واضطراه إلى الهروب إلى سوريا (١٧٤٢) ، ثم اقتسما السلطة فيما بينهما .

(١) Delaporte, pp. 324-363

فاستولى ابراهيم بك على منصب المشيخة ، واستأثر رضوان بك بأمارة الحج ، ثم تبادلا فيما بينهما هذين المنصبين ، حتى إذا أسرف ابراهيم فى إظهار جبروته انتهز الباشا العثمانى فرصة غيابه فى الحج ، فعضد مكيدة كانت تدبر فى الخفاء للتخلص من الصديقين معاً ؛ وتمكن المتآمرون فعلاً من حبس ابراهيم ورضوان فى القلعة ؛ ولكن لم يلبث أن أخفق المتآمرون فخرجا من الحبس ، وعُزل الباشا . وعند ما نُصّب الباشا الجديد (١٧٤٤) وهو راغب محمد ، أمره الباب العالى بقتل شيخ البلد والبكوات المناوئين ، وتقرير النظام فى مصر . وبالفعل قُتل جماعة من البكوات ، واضطر آخرون ومنهم ابراهيم إلى الفرار ، ولكن راغب محمد باشا لم يلبث أن عُزل واستطاع ابراهيم أن يستعيد المشيخة فى عام ١٧٤٧ . وفى عام ١٧٥٤ قتل ابراهيم فخلفه فى المشيخة رضوان ولكنه لم يلبث أن لقى حتفه هو الآخر . على أن أهم ما يلاحظ فى أثناء هذه الفترة التى كان لابراهيم ورضوان فى خلالها السلطة (١٧٤٧ — ١٧٥٤) ، أن اختفت الاضطرابات واستتب الأمن وهدأت الحياة نوعاً .

على بك الكبير :

وقد برزت فى خلال ما تقدم شخصية ذات أثر فى الحوادث التالية هى شخصية على بك ، أحد مماليك إبراهيم بك . والواقع أن على بك بفضل الحكومة القوية التى أقامها فى السنوات التى خلصت له فيها السلطة ، والشهرة التى تمتع بها بين معاصريه لا يزال يستأثر بانتباه الكتاب والمؤرخين . وينقسم الرأى ويختلف فى تقدير آثار حكومته على البلاد وعلى أهلها عامة ، ولعل السبب فى ذلك أن مصر خرجت فى عهده ، ولفترة قصيرة ، من الدائرة الضيقة التى فرضتها المنازعات أو الفوضى الداخلية حولها فاشرأبت بعنقها إلى ماوراء حدودها ومدت سلطانها إلى البلدان المجاورة ، وكانت لها صلات سياسية مع إحدى الدول الأوربية الكبيرة فى ذلك الحين وهى الروسيا ؛ الأمر الذى دعا جماعة إلى تحديد غرض على بك من نضاله المستمر الطويل بالاستقلال عن تركيا

تحقيقاً لرغبة « وطنية » و إرضاء « لشعور قومى » ؛ وقد استند أصحاب هذا الرأى فى قولهم على تمجيد صاحب (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، لهؤلاء الأمراء المصريين ، عموماً وثنائه على حكومة على بيك خصوصاً ؛ وما ذكره الرحالة الفرنسى (ساڤارى) فى إحدى خطاباته عن عدالة البيك الصارمة فقال ما معناه « إن المصريين سعدوا ولا شك عند ما أصبحت النزاهة عنوان الأدارة الحكومية » ، وظفروا تحت حكومة على بيك بذلك « العصر الذهبى » الذى انتظروه طويلا[١] .

غير أن هناك جماعة أخرى انصرفوا إلى غير هذا الرأى ، لأنهم كانوا لا يرون شيئاً من « الوطنية » و «القومية» فى نشاط على بيك ، لأن مصر فى القرن الثامن عشر ما كانت تعرف شيئاً عن الوطنية والقومية ؛ ولم يُسبب نوع الحكم الذى أنشأه المملوك الكبير انتشار الرخاء فى مصر حتى « يسعد » المصريون فى هذا « العصر الذهبى » الموهوم ؛ بل إن الرحالة الإنجليزى (جيمس بروس) الذى زار القاهرة فى أثناء أسفاره مرتين فى سنتى ١٧٦٨ ، ١٧٧٣ كتب أنه لا يمكن أن يوجد على ظهر البسيطة حكومة أشد قسوة وظلماً وعدواناً وطغياناً من حكومة أولئك الأشرار الذين تتألف منهم حكومة القاهرة[٢] .

ومع ذلك فإن دراسة تاريخ على بيك قد لا تخلو من الأهمية لأنها تبين أولا كيف أن الضعف الذى لحق بالدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر من جراء الضربات التى انهالت عليها من الدول الأوربية وخصوصاً الروسيا ، قد أوهن قبضتها على الأقاليم الأسيوية والأفريقية التى تألفت منها أمبراطوريتها ، فاضطربت أحوال العراق والشام ، واستفحل أمر الشيخ ظاهر العُمَر فى عكا وفلسطين ، واستقل على بك بملك مصر ، وانزوى الباشا العثمانى فى الحجاز بينما تنازع الشريفيون على الأمارة فى مكة . والحق إن ثورة على بيك

(١) Savary. t. II. Letter XVI. p. 221
(٢) Bruce. vol. I. p. 102

فى مصر ما كانت إلا مظهراً من مظاهر هذا الضعف الذى ألمّ بتركيا ومن آثار المرض الذى أنهك جثمانها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر.

وزيادة على ذلك ، فقد نجحت حركة على بيك الاستقلالية فى تحويل انتباه أوربا من جديد نحو إحياء الطريق البرى للتجارة بين الشرق والغرب عبر برزخ السويس ، ولو أن الفوضى التى تلت انقضاء عهد هذا المملوك لم تلبث أن جعلت من المتعذر الاستفادة من الطريق البرى فلم يستتم أمره أخيراً إلا فى عهد محمد على باشا منشىء الدولة المصرية الحديثة .

تاريخ على بك[١] :

ولد يوسف بن داود عام ١٧٢٨ فى إحدى إمارات الأناضول من أسرة طيبة فكان أبوه من قسس الكنيسة الرومية وعنى بتربيته ، حتى حدث وهو فى سن الثالثة عشرة أن وقع فى أيدى جماعة باعته بعد ذلك أحد التجار فأحضره هذا إلى مصر وباعه بدوره إلى إبراهيم بك ، واعتنق يوسف الإسلام وتسمى باسم (على) ؛ وقد أتيحت لهذا المملوك فرصة الحج إلى مكة مع سيده إبراهيم بك شيخ البلد (١٧٥٠) ، فأظهر من ضروب الشجاعة فى النضال ضد البدو ما حببه إلى سيده ، فسماه « كاشفاً » ؛ وعند ما أوقع الباشا العثمانى راغب محمد ببعض البكوات المماليك على نحو ما تقدم ، انتهز إبراهيم بك هذه الفرصة فاستأثر بإحدى البكويات الخالية ، ورفع إليها مملوكه على بعد أن حرره ، وقد أثار هذا العمل النقمة على ابراهيم من جانب أعدائه ومنافسيه وكان ذلك من أسباب قتله فى النهاية . وأما على بيك فقد صمم على الانتقام لسيده ، وأخذ من ذلك الحين يتذرع بالصبر والحيلة لبلوغ مأربه ، فاشترى العدد الوفير من المماليك ، وأغدق العطايا على

(١) Lusignan, S. A History of the Revolt of Ali Bey etc.. London 1784, Also, Delaporte pp. 346-355; Lockroy, E. Ahmed le Boucher. etc. Chap. I.

الأصدقاء والأعوان، حتى قوى شأنه لدرجة أثارت عليه حفيظة خليل بك شيخ البلد، فلم يجد على بك مناصاً فى تلك الآونة من الهروب إلى الصعيد، وقتل خليل بك جماعة من أتباعه وأصدقائه ؛ ومع ذلك فقد جمع على بك حوله كثيراً من المتذمرين من شياخة خليل بك، ونزل بهم فى النيل وقاتل خليل بك وأرغمه على الانزواء فى طنطا حتى سقطت طنطا فى أيدى على بك، وانتهى المطاف بشيخ البلد إلى الإسكندرية وهناك مات مخنوقاً، وبموته انفسح المجال لعلى بك، فتسلم الشياخة فى عام ١٧٦٣ .

سيادته :

وانكب على بك بمجرد استئثاره بالحكم على الانتقام من قتلة سيده، فنفّر منه قلوب البكوات المماليك وأوجد له أعداء كثيرين، واضطرّ فى النهاية إلى الفرار إلى بيت المقدس ؛ ومع هذا فقد ظل أعداؤه فى مصر يخافونه، وتوسطوا لدى الباب العالى فأمر الأخير حاكم القدس . بتدبير قتل على بك . بيد أن أحد أصدقائه فى الاستانة أسرع بإبلاغه ذلك ونصحه بالهروب من القدس، فغادرها على بك إلى عكا، وهناك استقبله حاكمها الشيخ ظاهر العُمَر بالحفاوة والإكرام . وفى عكا استطاع على بك إنشاء الصلات مع بعض البكوات الموالين له فى مصر، كما كتب الشيخ ظاهر إلى أصدقائه فى مصر حتى يسعوا لدعوة على بك، وبالفعل رجع على بك، واستلم مشيخة البلد ؛ ومع ذلك فقد شعر أن مركزه فى الشياخة لا يزال مهدداً ووجد أن يعتمد على الإدارة الطيبة الهادئة لضمان الاستقرار فى منصبه ؛ على أن أعداءه سرعان ما انتهزوا فرصة وفاة الصدر الأعظم فى الآستانة فى تلك الآونة وكان من أكبر مؤيدى على بك وأصدقائه، فانقلبوا على شيخ البلد، وأرغموه فى عام ١٧٦٥ على الفرار إلى بلاد العرب، فقضى على بك هناك زمناً يستطلع أحوال البلاد والمدن الساحلية على البحر الأحمر، ثم لم يلبث أن ذهب إلى فلسطين فى ضيافة صديقه الشيخ ظاهر، ولبث هناك حتى جاءته الدعوة للمرة الثانية من مصر للعودة إليها فرجع إلى القاهرة (١٧٦٦) . ولم يستقر له المقام بها نهائياً إلا فى العام التالى .

وفى مدة السنوات الست التالية استتب الحكم لشيخ البلد ، فأنزل العقاب ببدو البحيرة الذين كانوا قد لجأوا إلى الثورة بمجرد عودته إلى القاهرة فنهبوا وعاثوا فساداً فى الوجه البحرى ، وعهـــد على بك بعقابهم إلى أحد مماليكه (أحمد) فقتل من البدو الكثيرين حتى لقّب من ذلك الحين (بالجزار) ، وهو أحمد باشا الجزار الذى دانت له فيما بعد باشاوية عكا . ثم طفق على بك يحكم البلاد حكم المستبد المستنير ، فهو كما يقول الجبرتى[1] : « قد تتبع المفسدين والذين يتداخلون فى القضايا والدعاوى ويتحيلون على إبطال الحقوق بأخذ الرشوات والجعالات وعاقبهم بالضرب الشديد والإهانة والقتل والنفى إلى البلاد البعيدة ، ولم يراع فى ذلك أحداً سواء كان متعمما أو فقيهاً أو قاضياً أو كاتباً أو غير ذلك بمصر أو غيرها من البنادر والقرى ، وكذلك المفسدون وقطاع الطريق من العرب وأهل الحوف ، وألزم أرباب الإدراك والمقادم بحفظ نواحيهم وما فى حوزهم وحدودهم وعاقب الكبار بجناية الصغار ، فأمنت السبل وانكفت أولاد الحرام وانكمشوا عن قبائحهم وإيذائهم بحيث أن الشخص كان يسافر بمفرده ليلاً راكباً أو ماشياً ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أية جهة ويبيت فى الغيط أو البرية آمناً مطمئناً لا يرى مكروهاً أبداً . »

وحتى يقوى مركزه أكثر على بك من جمع الأعوان حوله فرفع فى أثناء هذه السنوات الست إلى رتبة البيكوية ستة عشر من مماليكه كما رفع أحدهم إلى مركز أغا الانكشارية ، وكان من هؤلاء محمد بك أبو الذهب واسماعيل بك وطنطاوى بك وغيرهم ؛ كما زاد عدد مماليكه إلى الستة آلاف ، وضم إليهم عشرة آلاف مغربى ، وقد درب على بك هذه القوة الكبيرة من الجند على النظام الصارم ، كما عنى بتعليم وتدريب مماليك بيتـه ، وأغدق النعم على الماهرين منهم والمخلصين له ، حتى اشـتد بأس جماعته . وكذلك لم يغفل على بك « صالح الشعب » — كما يقول (ساڤارى) — فأخضع العربان المنتشرين فى الصحراء وعلى الحدود ، واهتم بإنعاش الزراعة ، واستقر الأمن فى القرى ،

(١) الجبرتى ج ١ صفحات ٣٨٤ — ٣٨٥ .

واطمأن الناس لعدالته الصارمة . وعند ما حاول أعداؤه الوقيعة به (١٧٦٨) كشف مكيدتهم أبو الذهب .

استقلال على بك :

على أنه سرعان ما حدث من الحوادث ما عكر صفو هذا الهدوء النسبى فى مصر ، وأدى بدوره أيضاً إلى امتداد نفوذ البك الكبير إلى ما وراء الديار المصرية ، فقد حدث فى عام ١٧٦٨ ان قامت الحرب بين الروسيا وتركيا ودخلت الأساطيل الروسية فى البحر الأبيض ، واستعد (شيخ البلد) فى مصر — كما جرت العادة — لإعداد قوة من المقاتلة لمعاونة الباب العالى فى هذا النضال ؛ وبالفعل جهز على بك حوالى الاثنى عشر ألف مقاتل ، ولكن أعداءه انتهزوا هذه الفرصة فأوقعوا بينه وبين الباب العالى عند ما أرسلوا بأخبار هذه الاستعدادات إلى الآستانة وذكروا أن غرض على بك منها إنما هو إرسال الإمدادات للقتال فى صفوف الروس الذين عقد معهم شيخ البلد — على حد قولهم — معاهدة تحالف ضد الدولة العثمانية . وصدق الباب العالى هـذا القول فأرسل إلى مصر رسولاً لقتل على بك ، ولكن أصدقاء شيخ البلد فى الآستانة أسرعوا بإخباره ، فكمن رجاله لهذا الرسول فى الطريق وقتلوه قبل بلوغه القاهرة ، واستولوا على أوراقه . وعندئذ جمع على بك مماليكه وأعوانه وأطلعهم على كافة ما جرى ، كما أراهم الفرمان الذى كان يحمل قتله ، ثم أظهر لهم غدر الباب العالى وسوء نيته نحو كافة من تسلموا الشياخة من البكوات المماليك ، وحضهم على الالتفاف حوله ، وضم قواتهم إلى الروسيا ، وتخليص الديار المصرية من ربقة الظلم العثمانى بزعامته نهائياً ؛ وهكذا نبتت الفكرة الاستقلالية لدى على بك ، ولو أن الرأى يتفق على أن شيخ البلد كان دائماً صاحب أطماع واسعة منذ أن تسلم الشياخة ، فقد كتب الرحالة الفرنسى (ڤولنى)[1] الذى زار مصر بعد أن انقضى عهد على بك بسنوات

(١) Volney, t.I. p 97 : also Delaporte - p 347.

قليلة : « أنه بمجرد أن اجتمعت أسباب السلطة بأكملها فى أيدى على بك عزم على استخدامها لزيادة نفوذه وسلطانه ، فإن أطماعه ما كانت تقنع بلقب الحاكم أو القائمقام ، لأن سيادة الأستانة كانت تجرح كبرياءه ؛ فهو لا يريد أقل من لقب سلطان مصر لنفسه . وعلى ذلك فقد اتجهت كافة أعماله نحو تحقيق هذا الهدف . »

وبالفعل طرد على بك الباشا العثمانى ، وامتنع عن دفع الجزية للباب العالى ، ثم صك النقود باسمه (١٧٦٨) ؛ وأسرع بإخبار الشيخ ظاهر بما فعل ووعده بأرسال الجند له من مصر للاشتراك مع جند ظاهر فى فتح سوريا .

ولم يلق على بك فى كل ما فعل أية مقاومة من جانب الدولة العثمانية ، فسمع أن الباب العالى كان ينقم ولا شك على ضياع البقية الباقية من مظاهر سلطانه فى مصر ، فإن مجرد الغضب كان لا يكفى لإرجاع مصر إلى حظيرة الدولة ، وكان يتحتم عليه خوض غمار الحرب ضد شيخ البلد ، الأمر الذى ما كان يستطيعه بسبب ثورة الشيخ ظاهر فى عكا والشام ومشاغل تركيا بمسألة بولنده ، وأخيراً بالحرب مع روسيا .

فانتهز على بك هذه الظروف المؤاتية وشرع يوطد نفوذه فى الصعيد حتى استتب سلطانه نهائياً فى الوجه القبلى (١٧٦٩) ، وصار يستعد لإرسال الامدادات لحليفه الشيخ ظاهر فى الأراضى الشامية .

الشيخ ظاهر (١) :

وكان حدوث ثورة الشيخ ظاهر الذى استأثر بالحكم فى عكا بين عامى ١٧٥٠ ، ١٧٧٦ مثالاً آخر من أمثلة ضعف الدولة العثمانية وعجزها . فكما أنها لم تجرؤ على مناصبة شيخ البلد فى مصر العداء ، فهى قد اضطرت أيضاً إلى التسامح مع ظاهر العُمَر الزيدانى (أو الظاهر عمر) (٢)

(١) Volney, t.II pp 1-15; Lammens, La Syrie, t.II, Chap. XV; Lockroy, pp 33-71.

(٢) كما سماه الجبرتى . جزء أول . راجع أيضاً كتاب خطط الشام لمحمد كرد على جـ٢ : ص ٣٠٠ ومابعدها

من مدة طويلة ، فتركه يقوى موقع عكا ويبنى حولها القلاع ، ويتخذ الوسائل التى تكفل له تدعيم نفوذه من غير ممانعة . وكان الباب العالى يعتمد على باشا الشام عثمان (ابن العظم) ، فى كسر شوكة ظاهر ؛ ولكن الأخير لم يلبث أن اشتبك مع والى دمشق فى حروب انتصر عليه فيها .

وكان من جراء ما تكلفته هذه الحروب من مال ورجال أن ثارت الرملة ثم غزه ثم يافا ضد الباشا ، وحوالى عام ١٧٦٨ طلب الشيخ ظاهر من الباب العالى أن يؤيده فى حكومة عكا لمدة حياته ، وعلى أن يكون لأولاده من بعده الحكم فيها ، كما زاد على ذلك الرغبة فى أن يقيمه الباب العالى حاكما على الناصره ، وطبرية وصفد ، ثم شيخاً على كافة بلاد الجليل إلى جانب شياخته على عكا .

وكان فى هذه الظروف أن وعد على بك الكبير من مصر ، على نحو ما تقدم ، بإرسال الإمدادات إلى حليفه فى عكا .

على بك وفتح بلاد العرب :

على أنه قبل إرسال الإمدادات إلى الشام ، تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب ، فقد رأى فى اختلال الأحوال فى الحجاز ، وعجز الدولة العثمانية عن تأييد سلطانها فى هذه الأصقاع النائية فرصة سانحة لتوسيع أملاكه . فقد سبق أن زار بلاد العرب ووقف على أهمية جدة ومخا التجارية ، كما يبدو أنه كان متأثراً لدرجة ما فى مشروع فتح بلاد العرب بآراء التاجر البندقى ، كارلو روسيتى Carlo Rossetti ، وكانت له صداقة وثيقة مع على بك وتأثير عليه[1] فأراد على بك أن يجعل جدة مقر تجارة الهند فيحول بهذا العمل التجارة الشرقية من طريق رأس الرجا الصالح إلى الطريق البرى القديم عبر مصر كما ذكر (قولنى) (جزء أول ص ٩٨) : ولو أنه من المحتمل أن على بك إنما قصد أيضاً من هذه الحملة

(١) Bruce, vol I, p. 193

إحراز المجد والشهرة بالاستيلاء على الحرمين الشريفين ، أومجرد أشباع الرغبة فى امتلاك الأقاليم الواسعة ولما كان « غرضه الباطنى » كما كتب الجبرتى (جـ ١ : ص ٢٥٣) « هو طمعه فى الاستيلاء على الممالك » . وعلى كل حال فقد جاء إلى مصر فى عام ١٧٧٠ الشريف عبد الله ، وكان فى نزاع مع ابن عمه الشريف أحمد على إمارة مكة ، يطلب المعونة من على بك ، مهيئاً له الفرصة بذلك لتحقيق مشروعاته . فما أن استتب لعلى بك الأمر فى مصر ، واطمأن على حليفه الشيخ ظاهر الذى أرسل له الرسل بانتصاراته على والى الشام حتى طفق يستعد لحملة بلاد العرب ، وعندما كملت هذه الاستعدادات ، خرجت التجريدة فى شهر صفر من سنة أربعة وثمانين ومائة وألف (مايو ١٧٧٠) .

وقد قسم على بك قواته إلى قسمين إحدهما بقيادة محمد بك أبو الذهب ومهمته مهاجمة البلاد الداخلية ، والأخر بقيادة اسماعيل بك ومهمته مهاجمة المدن الساحلية ، كما أعد أسطولا من السفن لنقل المؤن والذخائر للجيوش ؛ ونجحت التجريدة فانتصر الفاتحون فى ينبع وقتل وزيرها المتولى من طرف شريف مكة ، ودخل أبو الذهب مكة وأوقع بالشريف أحمد هزيمة بالغة ففر هاربا ، وجلس الشريف عبد الله فى أمارة مكة ونزل حسن بك إلى بندر جده (ولذلك سمى بالجداوى) وتولى أمارتها عوضاً عن الباشا الذى تولاها من طرف السلطان العثمانى .

ورجع القائدان إلى مصر فى أكتوبر من السنة نفسها . وقد أعطى الشريف عبد الله ، على بك ، لقب « سلطان مصر وخاقان البحرين » (١) .

الحملة على الشام :

وهكذا قويت شوكة على بك وشجعه نجاحه فى الصعيد ثم فى الحجاز على المضى فى مشروعاته ، وقد أراد الآن بسط سلطانه على « العالم » وبخاصة عند ما كان البك يصغى

(١) Savary, t. II. Lettre XVI. p. 331